مسابقة الفلسفة للطلبة السنة التوجيهية (٢)

(١) النفس عند ابن سينا (٢)

للأستاذ كمال دسوقي

حدثتكم في المقال السابق عن موضع دراسة النفس من العلوم العقلية عند ابن سينا ، أعني أين يقع علم النفس من قائمة العلوم ولوحة المعارف عنده ، وأين كان يعالجها في معظم كتبه ؛ فربطها لكم بما يسبقها من الأمور الطبيعية الكلية التي قلت لكم إنها دائماً آخرها ، وبما يتلوها من القول في الإلهيات ؛ التي قلت لكم إنها تمهد لتناولها في نقطة « العقل الفعال » . واليوم أحدثكم عن موضع النفس ذاتها من سلسلة الوجودات المادية والروحية ، وصلتها بما فوقها وما تحتها — قبل الدخول في تفصيل قواها وملكاتها — فإن النفس تشغل في مذهب ابن سينا في الوجود مكاناً لا يقل دقة واطراداً عن المكان الذي رأيتم أن علم النفس يشغله في تصنيف العلوم العقلية عنده .

وحين نقول الإلهيات théologie فإنما نعني بها ما كان يسميه أرسطو ما بعد الطبيعة Metaphyzique فإن الإسلاميين قد حولوا هذا العلم لأرسطو إلى ما يرضي عقائدهم ، ويؤيد إيمانهم ؛ حولوا ميدانه إلى « النظر في الواجد ولواحقه بما هو واجد » أي النظر في الله الواحد والكثرة التي تنشأ عنه ؛ لأن كل موجود عند ابن سينا يصح أن يقال له في ذاته واجد (النجاة ص ٩٨) ، وكان أرسطو حين نظم هذا العلم وعرض فيه آراء سابقيه يحدد موضوعه بأنه « البحث في الوجود بما هو موجود » فلا يعترض عليه أن يبحث في الواجد ويدلل على الألوهية ، بل يترك له تحقيق ذلك إن استطاع .

على أن مشكلة ابن سينا في هذا الصدد لم تكن إثبات الوجود ، ولا واجب الوجود بقدر ما كانت مشكلة صدور الخلق عن الخالق ، وكيف ينشأ هذا الوجود المتكثر — الذي لا شك في كثرته — عن الإله الواحد — الذي لا شك في وحدانيته ؛ خصوصاً وأن الواحد عنده وفي مذهبه لا يصدر عنه إلا واحد ، وواحد فقط ؟

ولما كان مذهب أرسطو وحده لا يعينه على إثبات هذه النظرية لانتقاله من الكثرة إلى الواحد ، ولما فيه من تفسير مادي عقلي قد يتعارض مع الدين — مما يتحاشاه كل فيلسوف متأثر بالدين ، فإن مذهب أفلوطين كان أقرب إلى إثبات ذلك منه . وأفلوطين قد ذهب إلى أن الخلق يفيض عن الخالق ، وأن الوجود يصدر عنه بمحض الجود . فيتبعه الإسلاميون في هذا ، كما تبعوه في غيره ؛ سواء من علم منهم أنه لأفلوطين — على اختلاف بينهم — فأوتيهم ذلك في القول بقدم العالم من حيث لا يشعرون .

ويذهب ابن سينا في ذلك إلى تصنيف الموجودات من حيث الجهة إلى واجب الوجود ، وكل واجب أو ممكن فهو إما بذاته أو بغيره ، ومن هذين التقسيمين الثنائيين مجتمعين تنقسم

مناقشة ميزانية وزارة المعارف — بسؤال عن مستقبل المعاهد الدينية ، وخاصة تلك التي يدرس الشعائر الدينية فيها أفراد معينون ، إذ أن هذه الدراسات لا ترعاها الحكومة ، وأن هؤلاء الأفراد المعينين ليسوا متخصصين في طرق إعداد المعلمين . فأجابت الحكومة إجابة تهرب من السؤال ، إذ خشيت رد الفعل الديني الذي قد يهدد نظم الجمهورية الحديثة . وبعد أيام انتقلت هذه المناقشة إلى اللجنة المركزية للحزب الحكومي . وهذا الحادث — الذي لا يعتبر غير غريب في الغرب — ذو أهمية كبرى في تركيا اليوم ، لأنه في العشرين السنة الأخيرة لم يكن ممكنا حدوث مثل هذه المناقشة في أي نوع من الاجتماعات السياسية أو الثقافية .

وعندما يزغ نور الروح الانتقادية في تركيا ، فإن التفاعل بين الأفكار الاسلامية والغربية سيتخذ شكلا موحدا واضحا . وربما ينتج عن هذا التفاعل إصلاح ديني قلسفي في حدود الشكل العلماني للجمهورية . غير أنه عندما يحدث إصلاح من هذا النوع هل تستطيع تركيا أن توجد منابع تراثها الثقافي وتخلق حركة ثقافية متكاملة ؟

تلخيص
محمد محمد علي
قسم الجغرافيا بجامعة فؤاد

الموجودات إلى واجب الوجود لذاته ، وممكن الوجود بذاته ، ثم إلى ممكن بذاته واجب بغيره .

وواجب الوجود عنده — كما تجدون فى القانون الأول والثانية من إلهياته هو الوجود الذى متى فرض غير موجود عرض منه محال ؛ أما ممكن الوجود فهو الذى إذا فرض غير موجود أو موجوداً لم يعرض منه محال . فالواجب الوجود هو الضرورى الوجود ، والممكن الوجود هو الذى لا ضرورة فيه بوجه — يعنى فى وجوده أو فى عدمه — فليس وجوده أولى من عدمه إن انعدم ، ولا العكس إن وجد ، فهو الذى ليس ضروريا ولا ممتنعاً . وواجب الوجود — كما قلنا — قد يكون واجباً بذاته وقد لا يكون بذاته ، فواجب الوجود لذاته « هو الذى لذاته لا لشىء آخر » ، أى أن مجرد افتراض العدم فيه محال . وأما واجب الوجود لا بذاته « فهو الذى لو وضع شىء مما ليس هو صار واجب الوجود » . فالأربعة مثلا واجبة الوجود لا بذاتها بل بفرض اثنين واثنين مجموعين أو مضروبين . والاحتراق واجب الوجود أيضاً لا بذاته ، بل بفرض تلاقى القوة المحرقة بالقوة المحترقة (ص ٢٢٤) .

وأدلته فى إثبات واجب الوجود كثيرة ليس عليكم أن تحيطوا بها ، وحسبكم أن تتبينوا أن كثرتها إنما جاءت من تسليمه بها قبل البدء فى البرهنة على ما يريد . فأعانه « سبق الأصرار » هذا كما يقال فى لغة القانون ، و « الفكرة الثابتة » هذه — كما يقال فى علم النفس ؛ على أن ينتزع كثيراً من البراهين يؤيد بها قضيته . وإلا فما كان له أن يثبت — وما كان لقارئه أن يفهم أن « كل شىء يكون كافياً فى أن يوجد بذاته فهو واجب الوجود » لو لم يتمثل فى قرارة نفسه صورة الله الذى يؤكد له الوجود والوحدانية والخير وأنه عقل وعاقل ومعقول ، وأنه عاشق ومعشوق ، وأنه لذيذ وملتذ ... ولماذا لا يلتذ من يشعر بكماله حين يتأمل نفسه .

ذلكم أن تأمل الله لذاته هذا يحدث له لذة من ناحية ، ويحل مشكلة ابن سينا من ناحية أخرى . فمن هذا التأمل يصدر الفيض الإلهى ويكون الخلق . فينشأ أولا عقل أول هو واجب الوجود بالله ممكن بذاته . وهذا العقل الأول حتى الآن واحد وروحى ، ولكنه يتأمل الله من ناحية ، ويتأمل ذاته من ناحية أخرى . فمن تأمل العقل الأول لله ينشأ العقل الثانى ، ومن تأمله لذاته ينشأ الفلك الأول جسمه ونفسه . ثم إن هذا العقل الثانى من حيث أنه واجب الوجود بالأول يتعقل هذا الأول فينشأ العقل الثالث ، ويتعقل من ناحية أخرى ذاته — من حيث هو ممكن الوجود بذاته — فينشأ جسم الفلك الثانى ونفسه ، وهكذا يظل كل عقل يتأمل وجوبه بغيره فينشأ عنه عقل أدنى . ويتأمل إمكانه بذاته فينشأ عنه جسم ونفس الفلك المرتبط به حتى ينتهى الأمر إلى العقل العاشر المدبر لعالم الكون والفساد ، وهو العقل الفعال الذى تتصل به نفوس البشر .

فالعالم العلوى إذن يتركب من سلسلة متراكبة Hiérarchie كل حلقة فيها تحتوى على ثلاثة أشياء : عقل ، وفلك ، ونفس . وعلى رأسها جميعاً واجب الوجود لذاته الذى لا يبدع إلا العقل الأول ، وهذا يبدع لأول مرة ثلاثة أشياء . عقلا ثانياً ، وفلكا نفسياً ، وجسمياً . وهكذا تتكرر العملية حتى تخلص لنا عشرة عقول وتسعة أفلاك ؛ آخرها فلك القمر وكرة الهواء المحيطة بالأرض

وأترك لكم تصور هذا العالم العلوى كما تشاءون ، ولكنى أود أن تلاحظوا معى على هذه النظرية الفروض الآتية :

أولا : افتراضها منذ البدء أن الله واجب الوجود لذاته ، وأنه عقل وعاقل ومعقول .

ثانياً : تسليمها بأنه واحد ، وأنه لا يصدر عن الواحد إلا الواحد — بالنسبة لله على الأقل .

ثالثا . قيامها على تعقل الله لذاته وتأمله لنفسه — وكذلك الأمر فى العقول الأخرى كل بدوره — كأساس للخلق ، ومبدأ للوجود الإلهى . كما أريدكم أن تقفوا بعقولكم ظويلا عند مناقشة مآخذها التالية .

أولا : أما — وقد وضعت قانوناً عاماً ، هو أنه لا يصدر عن الأحد إلا الواحد — قد قصرت تطبيقه على واجب الوجود وحده ثم تجاوزته فى الحال مع العقل الأول فجعله يخلق ثلاثة أشياء بدلا من شىء واحد . مما يجعلها متناقضة مع ذاتها منذ اللحظة الأولى — إلا أن يكون ابن سينا قد قصد « بالواحد » هنا الله وذلك ما لا يدل عليه قوله هذا الذى سبق أن بينت لكم مرجعه فعودوا إليه ، فقد لا تجدون فيه هذا التناقض الذى أجد .

ثانياً : وما قاله فى الوجود تنشأ عنها الكثرة ، يقال مثله فى الروحية تنشأ عنه المادية . فقد أراد ابن سينا من توسيط العقل الأول بين الله والموجودات أن يُبعد عنه صدور الكثرة من ناحية والمادة من ناحية أخرى ؛ لأن الله ليس بمادى ، ولذا كان العقل

الأول الصادر عنه غير مادى أيضاً ، ولكن كيف يتأتى لهذا العقل الأول أن يخلق بتأمله (الذى هو عقل روحى) مادة الجسم الأول نفسه ؟ هذا تناقض وغموض آخر .

ثالثاً : أن هذا المذهب يقف بالفيض عند الفلك العاشر ، فلك القمر وكرة الأرض ؛ أى العقل الفعال . ولا يبين لنا كيف تفيض أشياء هذا العالم عن العقل الفعال ، وهل هى تفيض عنه بعلم الله أو بغير علمه ، فذلك — فيما أظن — هو الذى حدا بابن سينا إلى أن يقصر علم الله على الكليات دون الجزئيات . (النجاة ص ٢٤٧) . واعتبر الغزالى ذلك كفراً صريحاً ؛ لأنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . « كما أنك إذا تعلم الحركات السماوية كلها ، فأنت تعلم كل كسوف وكل اتصال وانفصال جزئى ، فكذلك الإله يعلم الجزئيات ولا يعزب عنه شىء شخصى » (الغزالى : المنقذ من الضلال ، طبعة دمشق الثالثة ص ٩٥) ، رداً على ابن سينا (النجاة ص ٢٤٨) .

والنتيجة الضرورية لهذا المذهب الأول بقدم العالم — وإن لم يستطع ابن سينا أن يقول به صراحة . فإن الله قديم ولا شك . وما دام العالم ينشأ عنه تعالى لذاته على هذا النحو ، وتعقله لذاته صفة لا تنفك عنه ، فلا بد أن يصدر عنه هذا الفيض منذ الأزل لا سيما أن العقل الأول واجب الوجود به ؛ بمعنى أنه يفترض وجوده منذ افتراض وجود خالقه تبعاً لتعريفه هو لواجب الوجود فوجوب وجوده ضرورى لا من حيث أنه ممكن بذاته ؛ بل من حيث هو واجب بالله . وعلى ذلك يكون العقل الثانى ضروريا بالأول . وهكذا تستمر السلسلة ويتم الخلق بهذا الفيض الأزلى القديم عن الله الأزلى الواجب الوجود .

ومهما يكن من أمر هذه النظرية فهى لا تعدو أن تكون مزيجاً من نظرية أرسطو فى عقول الأفلاك ، ومن مذهب أفلوطين فى فلسفة الإشراقية التى ظلت مورداً يفيض بالخصب والوفرة فى كل فلسفات الأديان . وقد جارى ابن سينا هذه الأفلاطونية المحدثة ، فقال بما قالت به من خيرية الله ، وتزوع الكائنات إلى أن تنجذب بالشوق ، وأضاف إليها ما كان قد تأثر به من قول أرسطو — وما كان شائعاً لعصره — من حركة الأفلاك السماوية حركة دائرية حول عقولها لتصل إلى الواحد ، وازدياد شوقها أبداً للوصول إليه وإن كان ذلك الوصول بعيداً عنها ؛ إذ الكواكب فى رأى ابن سينا حيوانات مطيعة لله تعالى (ص ٢٥٨) ، ولكل منها عقل يديره كما أن له نفساً تحركه . وقد ساهم هو فيما كان شائعاً بين معاصريه من أن كل كوكب من كواكب الأفلاك يشبه إلهاً من آلهة اليونانيين ، فالشمس للحرارة ، والقمر للرطوبة والمريخ للغضب ... الخ وهذه الأفلاك التسعة أجسام سماوية تؤثر حركتها فى نفوسنا وأجسامنا — مما تأثر به الفارابى فى « مدينته الفاضلة » ، ومما عابه عليه ابن رشد حين طعن الغزالى بأقواله هذه على الفلسفة .

أرأيت إذن موضع النفس فى ترتيب الموجودات عند ابن سينا ؟ الأفلاك لها نفوس تحرك أجسامها فى العالم العلوى ، والأجسام النباتية والحيوانية والإنسانية لها نفوس تحركها فى العالم السفلى ، وبين العالمين يقف العقل الفعال وسيلة وواسطة اتصال . وفوق العالم العلوى كله الجوهر الفارق غير المجسم ، والصورة المجردة ؛ الذى هو الله ، والعقول العشرة الدرة التى تتأمله وتتعقله ، وتحت العالم السفلى كله الهيولى أو المادة الأولى التى هى محل نيل الوجود فى كل موجود ، وفى كل طبقة فيما بين ذلك جملة موجودات ذات مواد وصور متنوعة شتى .

وحسبكم إذن هاتان المقالتان فى التقديم لدراسة النفس عند ابن سينا ، ولنشرع منذ المقال التالى فى تحليل الفصل المطلوب إليكم دراسته .

كمال يوسف

إعلان

تقبل وزارة الشئون الاجتماعية عطاءات لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم الأحد الموافق ٢٣ يناير سنة ١٩٤٩ عن توريد كتب اجتماعية وأدبية وتاريخية وطبيعية وقصصية ودينية ورياضية لازمة للمراكز الاجتماعية .

ويمكن الحصول على شروط المناقصة من قسم المشتريات بالوزارة مقابل ٢٠٠ مليم وتطلب الشروط على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما يضاف إليها ثلاثون مليما أجرة البريد. ١٠٩٢